

الزينة والجمال في ثقافة القرآن



ثقافة الزينة والجمال، ثقافة الإنسان الحضاري، الرفيع الذوق والمُرَهف الحسّ.. وهذا الإنسان يتحسّس فيض الجمال، وجمال الحياة في مرايع القرآن جميعها.. والقرآن تحدّث عن الزينة والحُسْن والجمال... بل وكان هو الصيغة الجمالية المُثلى في بنيته الأدبية، وإيقاعه الفنّي، وصياغته اللّغوية.. فسحر جماله، وجمال بلاغته ملك النّفوس والقلوب، وأذهل العقول، واستولى على الألباب.. ذلك لمن يعرف جمال اللّغة، ويتذوّق فنّ الإيقاع اللّغوي، ويتحسّس جمال التّناغم بين المعاني والألفاظ، وإيقاع الحروف وتناسب مخارجها... إلخ.

وإذا كان القرآن هو الصّيغة الأخرى المُثلى في الجمال، فإنّه صادر من ربّ الجمال والجلال.. فالذي أوحى بهذا القرآن الجميل هو جميل يحبّ الجمال.. فقد ورد هذا الوصف على لسان النبي (ص): "إنّ الجميل يُحبّ الجمال"، وما يحبّه الله من خلقه والتكوين، يُبدعه على ما أحبّ وأراد.. ونحن نشهد مظاهر الجمال في عوالم الطّبيعة.. وفي خلق الإنسان والطّيور والحيوان، والأزهار والنّبات.. وحفيف الرّيح.. وتعانق أمواج البحر وهدوء اللّيل، وإطلالة القمر ومغيب الشّمس، وكركرات الأطفال، وتغاريد الطّيور..

فالعالم من حولنا لوحة فنيّة رائعة الجمال والجلال.. فكلّ ما خلق الرّحمن جميل..

كلّ ما في الكون والطّبيعة وعالم الأحياء يوحي بهذه المعاني ويُجسّدُها..

إنّ الجمال في الطّبيعة وعوالم المخلوقات هو مصدر الإلهام للفنّان والشاعر والأديب، وكلّ منتج لموضوع الجمال.

إنّ الذي يتحسّس الجمال ويحبّ قيمه، ينفر من القُبْح والقبيح، سواء ما كان في عالم المادّة والموضوع المادّي.. أو ما كان في عالم القِيَم والموضوع القيمي.. إنّهُ ينفر من الشّئِ كلِّ القبيح، ومن اللَّفْظِ القبيح، ومن الرّوائج والمناظر القبيحة.. ينفر من القذر والقذارة.. ينفر من الجريمة والحقد والكذب والعدوان.. ينفر من العبث والفوضى والابتذال.. فكلّ ذلك قبيح..

يتحدّث القرآن عن الحُسن والزّينة والجمال.. ويتحدّث عن جمال الطّبيعة والمخلوقات جميعها، فيعرض الخلائق لوحة جمالية تفيض بالبهجة والسّرور.. ويخاطب بها الإنسان ليلفت نظره، ويحرّك حسّه الجمالي، ليرتقي إلى صورة الكون والطّبيعة الجمالية..

نورد من هذه الآيات خطابه للإنسان، ودعوته إيّاه لأن يستمتع بطيِّبات الحياة وزينتها وجمالها.. ويحثّه على ذلك..

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلذَّكْرِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف/ 31-32).

وبهذه النصوص التشريعية والتثقيفية يردع القرآن أولئك المتقوّلين على شريعته والمدّعين أنّ القرآن يمنع الناس من الزّينة، والجمال وطيِّبات الحياة، ويُفندُ تلك الإدّعاءات.. بل ويؤكّد الدّعوة إلى الزّينة والجمال والإستمتاع بطيِّبات الحياة من غير إسراف أو حرمان..

ويتحدّث القرآن في موارد أخرى عن الزّينة والجمال في عالم الطّبيعة والأحياء، ويوردها دليلاً على

عظمة []، وجميل صنعه، وكمال قدرته.. وأنَّ الإنسان سيُخْتَبَرُ في تعامله مع ما تحمل الأرض من زينة وجمال.. هل سيتعامل مع هذا العطاء الرباني الجميل بما هو خير وهدى وصلاح، أو بما هو شرٌّ وفساد وضلال.. لنقرأ النصَّ المعبَّرَ عن هذه الثَّقافة والدعوة.

قال تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عِمَالًا) (الكهف/ 7).

وكما يتحدَّث عن الأرض وعاء الزينة ولوحة الجمال، يوجِّهه نظر الإنسان إلى جمال المخلوقات وحُسْنها وإلى عوالم السَّماء وما فيها من زينة وجمال، ليقرأ الإنسان دلالات هذه اللوحة، ويعرف عظمة البارئ الخالق المصوِّر.. ولتكون معالم الزينة والجمال، دليلاً على وجود الخالق العظيم وتربية للذوق والسلوك.. قال تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ) (السجدة/ 7).

(إِنَّا زَيَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينًا لِّلَّذِينَ الْأَعْيُنُ) (الصافات/ 6).

وفي موضع آخر يُحسِّس القرآن الإنسان بمظاهر البهجة والجمال في ما تُخْرِج الأرض من النِّبات، وتزهو به من أزهار وثمر وحقول ومناظر خلَّابة، يستحضر القرآن تلك الصورة بقوله: (أَمْ مِّنْ خَلْقٍ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ بِاللَّهِ بِلُ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل/ 60).

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْزَلْنَا مِنْهَا حَبًّا كَثِيفًا وَمِنْهَا شَعِيرٌ وَأَنْزَلْنَا مِنْهَا رِيشًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانًا وَمِنْهَا جِبَالٌ كَلْبًا وَمِنْهَا نَعْلٌ وَمِنْهَا كِبُؤَوهَا وَزِينَةٌ وَأَيُّهَا مَا لَا تَعْلَمُونَ) (النحل/ 5-6).

وكما يتحدَّث القرآن عن الجمال في الأرض والسَّماء والنِّبات، فإنَّه يتحدَّث عن الجمال في الحيوان.. وأنَّه من نِعَم [] على الإنسان.. يرسم صورة الزينة والجمال تلك بقوله: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) (النحل/ 5-6).

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

ومن جمال الطّبيعة والنّبات والحيوان إلى جمال الإنسان في خلقه وتكوينه.. إنّه يخاطب الإنسان بهذا الخلق الجميل، الذي أفاضه الخالق البارئ المصوّر، ويدعوه للتأمّل في عظمة هذا الإبداع والحُسْن والجمال.. يدعوهُ لأن يتأمّل في حُسْن الخلق الذي خلقه به خالقه.. وكم هو مفتون هذا الإنسان بالجمال البشري حين يتجسّد في صورته البشرية وفي شكله وصوته ومنطقه ومشيته وحركته، وابتسامته وتناسق قوامه... إلخ.

لنقرأ ما سجّله القرآن عن العناية الرّبّانية في خلق هذا الإنسان، وحُسْن تكوينه وتركيب صورته الجميلة الحسنة..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ) (الإنفطار / 6-8).

(وَصَوَّرَكُمُ وَأَعْيُنَكُمْ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ) (غافر / 64).

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين / 4).

وكما تحدّث القرآن عن الجمال في موضوعاته المادّية.. تحدّث عن الجمال والقيّم والموضوعات السلوكية.. إنّ الجمال كما يتجسّد في الشّكل والصّورة والصّوت والمظاهر البشرية الأخرى، فإنّه يتجسّد في السلوك الإنساني أيضاً.. يتجسّد في القول والعمل. وفي الأخلاق والعواطف والمشاعر والتعامل مع الآخر..

إنّ القرآن يدعو إلى هذا الجمال، وتجسيده سلوكاً وأخلاقاً وتعاملاً.. فإنّه تعبّر عن جمال الذّات الباطني، وحُسْن تركيبها النّفسي.. يُروى عن النبي (ص) المَثَل الأعلى في معرفة الشّريعة وتطبيقها والالتزام بقيمها، إنّه كان كثير العناية بمظهره ومنظره.. وكان إذا نظر في المرأة، قال: "اللّهم كما حسّنتَ خلّقي فحسّني خلّقي".

قال اليعقوبي ناقلاً اهتمام الرّسول (ص) بالزينة والجمال: "وكان (ص) إذا أراد الخروج من منزله إمتشط وسوّى جُمّته وأصلح شعره. وكان (ص) يقول: إنّ [] يُحبّ من عبده أن يكون له حُسْن

الهيئة...".

والقرآن يتحدث في موارد عديدة عن حُسن الخُلُق، عن الجمال في الصُّبر، وفي العفو، وفي التَّعامل مع الزَّوجة المطلَّقة. وفي هجر الآخرين إذا كانت هناك ضرورة للهجر. وإلى كلِّ سلوك يصدر عن الإنسان..

لنقرأ ونستمع إلى القرآن وهو يدعونا إلى جمال السلوك فهو يدعو إلى الصُّبر الجميل حين تشتدُّ المحنة على الإنسان وتضيق عليه مغاليق الأمور، ولا يجد غير الله ملجأً وعوناً للخروج من المحنة.. نقرأ ذلك في موقف النبيِّ يعقوب (ع) في محنته مع تأمر أبنائه على أخيه يوسف (ع): (قَالَ بَلِّغْ سَوَّاتِ لَكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْ أَمْراً فَاصْبِرْ جَمِلاً وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ) (يوسف/ 18).

ويخاطب القرآن النبيِّ العظيم محمداً (ص) حين اشتدَّت به محنة الصُّبرِ راع مع خصوم الدعوة الإسلامية، يخاطبه بقوله:

(وَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِلاً) (المزمل/ 10).

(فَاصْبِرْ صَبِراً جَمِلاً) (المعارج/ 5).

وحين يقع الخلاف في الأسرة التي جمعها الحبُّ والتآلف العاطفي والوجداني، ودعت الضرورة إلى فكِّ الشراكة الزوجية وإيقاع الفرقة والطلاق.. يدعو القرآن إلى أن يكون الطلاق طلاقاً جميلاً يليق بمكانة المرأة المصونة وحرمتها.. نقرأ ما جاء من قول الله تعالى للنبي (ص) في سورة الأحزاب: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعِكُنَّ [8] وَأَسْرِرْكُنَّ سَرَاحاً جَمِلاً) (الأحزاب/ 28).

ومثل هذا الخطاب يوجِّهه القرآن للمسلمين جميعاً.. جاء هذا الخطاب في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَاحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِلاً) (الأحزاب/ 49).

ويُخاطب النبيّ (ص) ويدعوه إلى الصّفح عن الخصوم الذين يختلف معهم في العقيدة، ما زال الموقف يتطلّب الصّفح.. قال تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) (الحجر/ 85).

والحُسْن هو أحد أوصاف الجمال.. والقرآن يريد الجمال في السّلوك والأخلاق، في القول والعمل.. لذا يدعو إلى جمال الكلمة، وحُسْن أدائها.. قال تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) (البقرة/ 83).

(وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (العنكبوت/ 46).

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت/ 34).

وهكذا يتحدّث القرآن عن الحُسْن والزّينة والجمال، ومظاهر الإبداع في هذا العام ويوجّه الأنظار إليه، ليتذوّق الإنسان معاني الجمال، ويملأ قلبه بحبّ الجمال وبروعة الجلال الإلهي، ويصنع سلوكه على ما صنعت عليه العوالم من صيغ الجمال.. فيصوغ فعله وقوله ونيّته صياغة الحُسْن والجمال.. ويبني البيت والشارع والمدينة والحديقة والمزرعة والمصنع وكلّ أثنائه وأدواته بناءً جمالياً يوحى بعظمة الإنسان.. ويُجسّد الزّينة والجمال في لباسه ونظافته وأناقته ونظام حياته، ويتذكّر دائماً قول الرسول (ص): "إنّ الإنسانَ جميلٌ يُحبُّ الجمال". ومن يُحبُّ الجمال، يكره القُبْح والقبيح في كلّ شيء.. فلا يصدر عنه إلاّ الحَسَنُ الجميل.